كتاب حديث

في

شمپوليون ومصر (١)

للاب رينه موتره اليسوعي

قد لعب شمپوليون العالم الفرنسوي الشهير دورًا عظيماً في تاريخ مصر فانهُ باكتشافاتهِ قد فتح للعلم عالماً جديداً بقي مجهولاً قروناً متعدّدة. ومع ما احرز لهُ من المجد من هذا القبيل كنتُ لا تكاد تجد لهُ ترجمةً اللهمَّ الّا بعض الاسطر خطَّها لذكرهِ اصحابهُ ومعارفهُ. فهذا الخلل قد سدَّتهُ اليوم آنسة المانية تدعى هرتلابن فصنَّفت كتاباً واسعاً في جلدين ضمَّنتهما اخبار ذلك الرجل الهمام

واوَّل ما يستلفت الانظار عند تصفُّح هذا التأليف الجديد ان صاحبتهُ اتابعها الله لم تُقدم على عملها الّا بعد ان جمعت موادَّهُ من مصادر شتَّى يوثق بها وحسبك دليلاً على فعلها جدول التآليف المتعدّدة التي سردت اسماءها في مقدّمتها مع ذكر كثير من العلماء والاثريين وتظار المتاحف رانساء شمپوليون واصدقائهِ الذين اعانوها في هذا العمل الجليل فجاء طبق المرام لا ينقصهُ شيء من اسباب الحسن والاتقان ولذلك قد اثنى على هذا التأليف رجلان لا يشكّ احد في طول باعهما واصالة رأيهما اعني بهما العالمين الفاضلين مسپرو وماير فانهما وجدا في هذا المصنَّف مثالاً صادقاً رُسمت فيهِ مع تمام الشبه صورة ذلك العالم المبرّز فتزنو اليها الابصار وتقرُّ لمحاسنها العيون

*

ومما افادتهُ الكتابة الادبية هرتلابن ما اتت بهِ من الحجج الراهنة لتثبت لصاحب الترجمة السبقيَّة في كشف اسرار الكتابات المصريَّة الهيروغليفيَّة. وكان البعض قد ادَّعوا ان شمپوليون قد تتبَّع آثار عالم آخر انكليزي الاصل سبقهُ الى هذا الاكتشاف يُدعى يُنغ (Young) فيزعمون استنادًا الى اقوال يُنغ نفسهِ انهُ هو الذي مهَّد

(١) اسمهُ في الالمانيَّة :

CHAMPOLLION. Sein Leben und sein Werk von H. Hartleben, mit einem Titelbild, einer Tafel und 19 in dem Text gedruckten Abbild., in-8°, *Berlin. Weidmannsche Buchhandlung*, 1906.

الطريق لقرينهِ وارشدهُ الى قراءة الخطّ الهيروغليفيّ (١ . فردًّا على هذا الزعم الباطل بيّنت الآنسة هرتلابن انّ الذي استفادهُ شمپوليون من اعمال قرينهِ نزرٌ قليل وانّ هذا العالم كان وقف منذ السنة ١٨١٠ على خواصّ الكتابة الهيروغليفيّة وموافقتها لاصوات معلومة وفي ذلك كان السرّ العظيم المؤذن بحلّ رموزها . امّا يُنغ فانهُ لم ينشر كتابهُ في الكتابات المصريّة وتطبيقها للاصوات الّا السنة ١٨١٤ . ثمّ ان يُنغ بعد ان بيّن معاني بعض العلامات المصريّة احجم عن العمل فبقي شغلهُ عتيمًا على خلاف شمپوليون الذي جرى على طريقة علميّة وعلى اسلوب ثابت شرحهُ في رسالتهِ الى المسيو داسيه (Dacier) المؤرخة في ٢١ ايلول سنة ١٨٢٢ ثم نشر في السنة ١٨٢٤ كتابهُ الذي عنوانهُ « خلاصة الطريقة الهيروغليفيّة عند قدماء المصريين »

ولمّا انجز شمپوليون تأليفهُ اراد ان يعرضهُ على الآثار المصريّة التي جمعتها الدول في متاحفها ليستدلّ بهذه المقابلة على صحة اكتشافهِ وعلى مضامين تلك الكنوز الادبيّة المجهولة . فزار اوّلا متحف تورين الشهير بمجموع عاديّاتهِ المصريّة ثم اخذ في تنظيم آثار مصر التي كانت في باريس

وفي سنة ١٨٢٨ قدّمت لهُ الحكومة الفرنساويّة ١٢٠٠٠ فرنك ليباشر سفرًا علميًّا الى مصر وتكلّفت كلّ مصاريف رحلتهِ . وهنا قد اطلقت الكاتبة الفاضلة العنان لقلمها لتعرّف القرّاء ليس فقط باعمال بطلها بل بنفسهِ واخلاقهِ الكريمة وسجاياهُ الفريدة في سرّهِ وعلانيتهِ وولعهِ بالابحاث العقليّة . كما انّها وصفت احسن وصف رفقتهُ الذين صحبوهُ في بعثهِ لا سيّما نسطور لوهت (Nestor l'Hôte) ذا الطبع الفكه واللسان الذلق الذي ساعد شمپوليون في جمع الآثار المصريّة وقام وقعد للحصول على شيء من بقاياها ومحصولاتها ونباتها حتّى انهُ كان ينسى الاكل والشرب واللبس في سبيلها مع حثّهِ للمداعبات واسترسالهِ في الاقاصيص المضحكة . وممّن احسنت وصفهم دولة خديوي مصر محمّد علي الذي اكرم وفادة شمپوليون وسهّل لهُ العمل مع عظم هيبتهِ في النفوس وشدّة مراسهِ . هذا الى اوصاف اخرى تجدها في هذه الترجمة من امكنة وبلدان وآثار وابنية تزيد القارئ شوقًا في مطالعتها

(١ اطلب تاريخ المسيو مسپرو (Maspéro: *Hist. anc. des peuples de l'Orient*, p. 828) وقد بيّن هناك المؤلف ما كانت حصّة يُنغ في هذا العمل

*

وما كاد شمبوليون يطأ ارض مصر عند نزوله في الاسكندريَّة حتَّى قبَّل تربتها وشكر البارئ على انهُ وفَّقهُ لنوال امانيهِ وكان عمرهُ اذ ذاك ٣٨ سنةً لهُ في درس الخطوط المصريَّة ٢٦ سنة لا ينقطع عنها ليلًا مع نهار . وكان منذ تفرَّد لهذه الابحاث في سن الثانية عشرة لا يتوق الَّا الى مصر ولا يفكر في سواها لعلمهِ بان رموز مخطوطاتها لا ينجلي لديهِ تمامًا الَّا اذا شاهد ارض الفراعنة . وكان في اثناء ذلك يعدُّ نفسهُ لهذه الاكتشافات بتعلم اللغات العبرانيَّة والسريانيَّة والكلدانيَّة بل اراد درس الفارسيَّة والصينيَّة امَّا العربيَّة والقبطيَّة فانهُ كان يحكم معرفتهما وكان وضع كتابًا مطوَّلًا في جلدين عنونهُ « بصر في عهد الفراعنة » جمع فيهِ كلَّ ما وجدهُ عن قدماء المصريين في كتب اليونان والقبط والعرب . وكلّ هذه الدروس كان اتَّخذها كتوطئة لاكتشاف معمَّيات المخطوطات المصريَّة . فلمَّا داس ارض مصر احسَّ بانهُ سيجد فيها مسك ختام اشغالهِ واتعابهِ

وما بادر الى عملهِ هو ورفقتهُ انهم تقلَّدوا الشرقيين في ازيائهم واعمالهم فارخوا لحاهم وحلقوا شعر رأسهم ولبسوا العمائم وتقلَّدوا السيوف الشرقيَّة . ثم ركبوا قناة النيل المعروفة بالمحموديَّة على سفينتين جُهِّزتا لخدمتهم وهما ايزيس اكبر المراكب المصريَّة في ذلك العهد كان يركبها الخديويّ عينهُ وذهبيَّة بديعة تدعى هاتور

وكان وصول هؤلاء العلماء الى القاهرة في ٢٠ ايلول فدخلوها من باب الاسراء فاجتازوا من بولاق الى الازبكيَّة . وكان المصريون قد سمعوا بخبر العالم المقدام الذي عوَّل على قراءة مكتوبات قدماء مواطنيهم فرحَّبوا بهِ واكرموا مثواهُ امَّا هو فاستبشر بهذه الملاقاة ووعد نفسهُ بالخير

فزار اوَّلًا انحاء تلك المدينة التي دعاها في رسائلهِ « مدينة الالف منارة » فدار في كلّ جهاتها وعاين كلّ آثارها وكان هو ورفقتهُ يقومون صباحًا ويركبون الحمير الفارهة التي اعجبهم سيرها الحثيث فيتجوَّلون على متونها حتَّى اقاصي البلدة لا يدفعون في حقّ ركوبها سوى اربعة غروش مصريَّة

وبينما كانوا يقضون نهارهم في زيارة القاهرة كانوا يصرفون قسمًا من الليل في إعداد ما يلزمهم لبحثهم العلميَّة فانجزوا ذلك بعد عشرة ايَّام . وكانت نيَّة شمبوليون

يصعد النيل الى جنادله الثانية دون ان ينزل في ضفاف النيل اللهمَّ الَّا الزمن اللازم ليتحقَّق ما يجده من بقايا المدن القديمة ويأخذ صوَر الآثار المهمَّة مؤجِّلًا درسها لوقت نزوله في الحواضر

ولم يشأ شمپوليون في رحلته هـذه ان يبحث عن آثار جديدة لقلَّة ما لديه من الوسائط لهذه الغاية وانَّما اكتفى بمراجعة ما وصفهُ العلماء من قبلهِ فنسخ بضبط وتدقيق ما سبقوا الى تمثيـل صورته ليتفرَّغ عند رجوعهِ الى درس هذه الكتابات وبيان معانيها على الطريقة التي اكتشفها

وباشر شمپوليون عملهُ بزيارة آثار منف ثم اهرام الجيزة وتمثال ابي الهول . ولم تكن بعد الطريق بين مصر والقاهرة قد فُتحت فركب النيل الى بدرشين . فلقي في « ميت رينه » تمثال رعمسيس الثاني وتعجَّب ممَّا رآهُ فيهِ من حسن الصورة ودقَّة الصنع الجبَّاري ثمَّ اعمل النظر في صورة ابي الهول لكنَّهُ وجدهُ غائصًا في الرمل والاطلال فلم يسمح لهُ الوقت بان يتبيَّن خواصّ هذه الدمية وكان سبق فكتب انَّ وجههُ كوجه العبيد . ثمَّ تفقَّد الاهرام وجرى لهُ عند نظرهِ لها ما جرى لكثير من الزوَّار الذين عند تقريبهم منها لم يجدوا فيها ما كانوا ينتظرونهُ من ضخامة الاقدار ومهابة المرأى وكاد ينسب الى الغلوّ والمبالغة ما كتبهُ فيهـا الكتبة لولا انهُ تحقَّق صدقهم بقياس حجارتها الضخمة . وكان القرويُّون واهل البادية الذين هناك تقاطروا حول شمپوليون ورفقتهِ « على عدد النمل » فكان يطيِّب قلوبهم ويلقي عليهم الاسئلة ليسمع منهم الاقاصيص الشائعة بينهم عن تلك الآثار العجيبة لعلَّهُ يستدلُّ بها على بعض غاياتهِ

ثمَّ عاد فركب السفينة وصعد النيل الى منية حيث وجد معملين للقطن فساءهُ انَّهما أُجلا على بقايا آثار قديمة فشوَّها محاسنها . ونزل في اسيوط فوجد فيها سوقًا رائجة للقوافل العديدة من الشام وما بين النهرين وجزيرة العرب كلّهـا تأتيها للتجارة مع القبائل الافريقيَّـة . ولمَّا انتهى الى جرجه مال الى الشمال ليزور آثار ابيدوس فمرَّ على محابس قدماء النسَّاك والرهبان لاسيَّما التي كانت في تابنَّة

وممَّا جلب الانذهال لشمپوليون هيكل دندرة العجيب لكنَّهُ بعـد تفقُّدهِ عرف انهُ اقرب عهدًا الى زماننا ممَّا زعم العلماء قبلًا . امَّا الأقصر فأنَّـهُ دُهش برأى آثارها الغريبة وممَّا كتبهُ فيها اوانئذٍ : « اننا نحن الاوربيين نستعظم اعمالنا وأيم الحقّ انَّنا لسنا

اذا عرضنا آثارنا بآثار قدماء المصريين الّا كالاقزام بالنسبة الى الجبابرة فان بين مآثرهم ومآثرنا كما بين الثريّا والثرى

وكان شمبوليون في هذه الرحلة يواصل شغله ليلًا مع نهار لا يدّخر عناء في سبيل غايته يتّخذ مع اصحابه الحنيض فراشًا والسماء غطاء. وربّما كان هو يقوم ليلًا فيوقد فانوسًا ويتفقّد وحده الآثار في المقاور والاسراب فيدوّن ما لم يسمح لهُ الوقت في نسخهِ في النهار حتّى هُدّت قواهُ بهذا الشغل الزائد وكاد يخور في طريقهِ لا سيّما انّ مزاجهُ كان ضعيفًا نحيفًا. فوصل الى اسوان بعد الجهد والعناء. وبعد ان اخذ قليلًا من الراحة اسرع الى تتمّة سفرهِ فبلغ في ٣٠ كانون الاوّل من السنة ١٨٢٨ قرية ابي سنبل على بُعد نصف ساعة شمالًا من الشلّالة التي قصدها. وبذلك انتهى القسم الاوّل من رحلة البعثة فاسرع شمبوليون وكتب لكاتب اسرار المجمع العلميّ في باريس المسيو داسيه ما تعريبهُ: «اني افيدك بملء الفرح والرضى انّ ما وجدناهُ حتّى الآن في رحلتنا من الكتابات المصريّة يوافق تمامًا ما سبقنا فقرّرناهُ في الجدّيّة الخطّ المصريّ فلا يحتاج الى شيء من التحوير والاصلاح فترى بذلك انّ تنشيطك لدروسي لم يذهب سدًى ولنّ الذين اطلقوا لسانهم في عذلي وتخطئتي قد طاش سهمهم»

*

ثم قفل شمبوليون راجعًا الى القاهرة وكان في ايابهِ يتعقّب الابنية القديمة كما في الذهاب ومّما زارهُ هيكل «درّ» الذي سمع ادباء الوطنيين ينسبون بناءهُ «الى الفرنسويين والمسكوب والانكليز منذ ٣٠٠,٠٠٠ سنة». وقضى ايضًا مدّة في الاقصر ليتتبّع ما فاتهُ من آثارها. واخذ يمعن النظر في احدى مسلّاتها كيف يتوصّل الى نقلها الى باريس فتوفّق الى طريقة العمل ودلّ على ذلك بتدقيق عجيب فامتثل الصنّاع امرهُ ووصلت المسلّة الى باريس دون اذًى سنة ١٨٣٢ اربعة اشهر قبل وفاة شمبوليون وكان ثقلها مع غلافها الخشبيّ بالنّا ٢٥٠,٠٠٠ كيلو

وفي ثيبة جعل شمبوليون يدرس درسًا تامًّا تاريخ الشلّالات المصريّة وتقاويم قدماء المصريين فكتب في ذلك عدّة كتابات لم ينجز عملها. وفي الكرنك صرف النظر الى النقوش التاريخيّة التي فيها فمُني برسم اكثر من ٥٠ شكلًا منها

وكان شمبوليون طول مدّة سفرهِ يعود في كلّ مساء الى ما رآهُ ونسخهُ في نهارهِ

فيحكم فيهِ النظر ويصلح ما يرى اصلاحهُ ويأخذ خلاصة كلّ شيء ليكون على بيّنةٍ من العمل ويصف وصفاً كافياً لكل اثرٍ وجدهُ . وقد نُشرت كلّ هذه الكتابات وهي تنبئ بثاقب عقل كاتبها وعلمهِ العجيب . فترى من ثمَّ انَّ شمبوليون في ايابهِ لم ينفكَّ عن الشغل لا بل كان شغلهُ ادقّ واتعب حتّى زاد ضنكهُ وقد وجدهُ رفقتهُ يوماً في مدفن رعمسيس السادس في ثيبة مغشيّاً عليهِ فرأى انهُ من الواجب اللازب ان يعود الى فرنسة . فكان وصولهُ الى طولون في ليلة عيد الميلاد من السنة ١٨٢٩

على انَّ هواء الوطن لم يحسّن كثيراً صحة العليل فعاش سنتين واشهراً بين انتقاه وانتكاس حتّى لبّى دعوة ربّهِ في ٣ آذار من السنة ١٨٣٢ . وكان العلماء الفرنساويون بعد عودتهِ اجمعوا على فضلهِ فجازوهُ بان نظموهُ في عداد امناء المكتب العلميّ ووكلوا اليهِ الرتبة الاولى في تدريس الآثار المصريّة في مكتب فرنسة . لكنَّ هذا الجد الاثيل لم يذقهُ شمبوليون زمناً طويلاً فمات قبل ان يتمّ الصرح العلميّ العظيم الذي باشر بتشييدهِ الّا انهُ انجز فقط غراماطيق اللغة المصريّة الذي ظهر بعد وفاتهِ بقليل

امّا المواد الواسعة التي كان جمعها فاقبل عليها العلماء ونشروا معظمها لا سيما اخا الفقيد « شمبوليون فيجاك » وكان اكبر منهُ سنّاً يخلص لهُ المحبّة ويقدّر اعمالهُ حقّ قدرها فطبع منها كتاباً نفيساً دعاهُ « آثار مصر والنوبة كما رسمها في مواقعها شمبوليون مع تعريفها ووصفها » ونشر ايضاً لهُ « كتاب معجم الخطوط الهيروغليفيّة » وكلاهما من التآليف البديعة

وتوفّي شمبوليون وعمرهُ لا يزيد على ٤١ سنةً وفي هذه المدّة من حياتهِ تمكّن من كشف اسرار الخطوط المصريّة ووضع كتاباً مدقّقاً في كلّ خواص لغة قدماء المصريين وبيّن طرائقهم الحسابيّة ودوّن تواريخ سلالاتهم وعرّف اعلام بلدانهم . فهذه المشروعات الجليلة وغيرها ايضاً قد احسنت في وصفها كاتبة هذه الترجمة الاديبة فاقامت بعملها اثراً خطيراً لذلك الرجل المقدام يُسرّ بمراجعتهِ المكلفون بتواريخ مصر . ولعلّها تزيد على فضلها هذا ان واقفت ما طلبهُ منها المسيو مسپرو بأن تنشر كلّ رسائل شمبوليون التي كتبها من ايطالية ومصر فتخدم بذلك الآداب خدمةً تُذكر فتُشكر